الباب السادس

مصر والفتح الإسلامى

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

ظهور الإسلام وفتح مصر

• **ظهور الإسلام:**

ولد النبي محمد ﷺبمكة في العام الذي أطلق عليه العرب عام الفيل والأرجح عندنا أنه عام 570م

ويمتد نسبه ﷺإلى قبيلة قريش واحدة من أشهر قبائل العرب وأوسطها نسبًا، ورغم أنهم عرفوه بالصدق والأمانة طوال حياته، إلَّا أنهم كذبوه ولم يؤمن منهم الا القليل.

وقصة انتشار الإسلام ليست مجال بحثنا هذا، وهي تحتاج إلى مجلدات عدة، وعلى أي حال فقد هاجر النبي ﷺمن مكة إلى المدينة المنورة والتي كانت تعرف باسم يثرب، وأدت الهجرة النبوية الشريفة إلى قيام الدولة الإسلامية التي أصبحت المدينة عاصمتها السياسية،وأصبح ﷺأول رئيس لهذه الدولة.

obeikan.com

بـدأ الإسـلام ينتشر بين قبـائل العرب بشكل تدريجي، وبـدأ المسلمون يوجهون أنظارهم لنشر الدعوة الإسلامية في ربوع الأرض، في الوقت نفسه الذي واجهت فيه الدعوة الإسلامية أخطارًا جمّة، ولعل أبرزهـا كفار قريش وغيرهـا من قبـائل العرب، وكذلك مؤامرات يهود المدينة ضد النبي والإسلام.

في ظل هذا وذاك مـا كان للمسلمين من بُد إلَّا وضـع النواة الأولى لأول جيش إسلامي وكان النبي ﷺهو القائد الأعلى لهذا الجيش.

دارت عدة غزوات ومعارك، ووجهت العديد من السرايا بـأمر من النبي صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وكان أول الغزوات هي غزوة بدر والتي حدثت في العام الثاني من الهجرة، ومن أشهرهـا أيضًـا غزوة بني قينقـاع، وغزوة أحد، ثم غزوة الخندق (الأحزاب)، وغيرهـا.

إلَّا أن العام السادس من الهجرة يعتبر عامـا فـارقـا في تـاريخ الإسلام، بل في تـاريخ البشرية كلهـا، دون مبـالغة في ذلك، هذا لأن العام السادس من الهجرة قد شهد عقد النبي صلحًـا مع كفار قريش عرف بـاسم صلح الحديبية نسبة للمكان الذي عقد فيه هذا الصلح، وكان لهذا الصلح العديد من البنود أهمهـا البند الذي نص على هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات.

ونرى أهمية هذا البند في أنه فتح المجال أمام الدعوة الإسلامية للانتشار خارج شبه الجزيرة العربية، وما لبث النبي ﷺ بعد عقد الصلح إلَّا وقد أرسل الرسل شرقا وغربا إلى الدول والولايات والامارات الموجودة خارج شبه الجزيرة العربية يدعوهم إلى عبادة الله الواحد والدخول في الإسلام.

فأرسل إلى كسرى الفرس (ايران)، وأرسل إلى إمبراطور الروم (الدولة البيزنطية)، وعظيم القبط (حاكم مصر من قبل هرقل إمبراطور الروم).

وقد جاء في خطاب النبي ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فاني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك اثم الأريسيين، "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (سورة آل عمران)(64)

ويبدو أن النبي ﷺ قصد بالأريسيين هنا الأقباط المسيحيين الذين كانوا على مذهب أريوس.

على أي حال استقبل المقوقس رسول النبي ورسالته استقبالًا حسنًا، وأجابه بكتاب جاء فيه:

"إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط في مصر. سلام: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا قد بقى وكنت أظن أنه يبعث من الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج من جزيرة العرب في أرض جدب وبؤس والقبط لاتطاوعني في اتباعه".

وأرسل المقوقس للرسول هدية تشتمل على كسوة وبغلة بسرجها وجاريتان، أحدهما مارية التي أنجب منها النبي ﷺولده ابراهيم، والأخرى شيرين أهداها الرسول إلى شاعره حسان بن ثابت رضي الله عنه فأنجب منها عبد الرحمن.[1]

وفي شهر ربيع الأول للعام الحادي عشر من الهجرة توفي النبي بعد أن أوصى بمصر وأهلها خيرًا مبشرًا بفتحها القريب، وبوفاته، استحدث المسلمون نظاما جديدًا في الحكم قائم على الشورى عرف باسم (الخلافة الإسلامية).

وقد اجتمع أهل العلم على تسمية الفترة التاريخية التي أعقبت

1- (1) مصر الإسلامية – أ.د. عصام الدين عبد الرءوف الفقي –ص10

وفاة النبي ﷺوحتى وفاة ربيبه وابن عمه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، في العام الأربعين من الهجرة باسم الخلافة الراشدة.

وقد توالى على منصب الخليفة في هذه الفترة أربعة من خير أصحاب الرسول ﷺوالذين بشروا بالجنة، وهم على الترتيب:

1. أبو بكر الصديق (11–13هجرية)
2. عمر بن الخطاب (13–23هجرية) وقد شهد عصره فتح مصر
3. عثمان بن عفان (23–35هجرية)
4. علي بن أبي طالب (35–40هجرية)

أما عن عصر الخليفة الصديق، فقد انشغل بتثبيت أركان الدولة، ومحاربة القبائل التي ارتدت عن الإسلام بالإضافة إلى قِصر فترة خلافته، لذلك لم تصل الفتوحات الإسلامية في عصره إلى مصر.

• **فتح مصر 641م:**

اهتم المسلمون بفتح مصر لعدة أسباب لعل أهمها، هي:

1. موقع مصر الاستراتيجي، حيث أن السيطرة عليها يتيح لهم تأمين فتوحاتهم في الشام، وكذلك نشر الإسلام في ساحل القارة الإفريقية الشمالي المطل على البحر المتوسط، ومنه إلى كل القارة الإفريقية.
2. وفرة الموارد الاقتصادية في مصر وأهمها نهر النيل وتربتها

obeikan.com

الخصبة الصالحة للزراعة، وغيرها من موارد.

3. تحكم مصر في طرق تجارية مهمة بين الشرق والغرب.
4. القهر والظلم الذي كان يعاني منه الشعب المصري من قبل الحكام الرومان.

استغل القائد المسلم عمرو بن العاص السهمي (أحد القادة الذين ساهموا في فتوحات الشام) فرصة وجود الخليفة عمر بن الخطاب في الشام وعرض عليه أمر فتح مصر، إلَّا أن الخليفة عمر بن الخطاب تردد في بادئ الأمر حتى لا يفتح جبهة جديدة للقتال مع الروم بالإضافة لانشغال جزء كبير من جيش الدولة الإسلامية في قتال الفرس شرقا.

إلَّا أن عمرو بن العاص ألح على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وظل يبين له أهمية ذلك، حتى رضي الخليفة وأمده بجيش قوامه بين الثلاثة والأربعة ألاف مقاتل.

أما عن خط سير الجيش الإسلامي الفاتح لمصر من جهة الشرق فكان على النحو التالي:

- في 18 هجرية الموافق 639م استطاع عمرو بن العاص فتح العريش دون مقاومة في أوائل ذي الحجة في عيد الأضحى.
- واصل عمرو بن العاص الزحف حتى وصل إلى محل يقال له الفرما، وهو المعروف الأن بمدينة بورسعيد، وقد لقى مساعدة

عظيمة من القبط الذين أرادوا مساعدة العرب لهم في التخلص من ظلم الروم.

- اتجه عمرو بن العاص إلى بلبيس بالشرقية، وهزم القائد البيزنطي الشهير (أرطبون) حتى استولى على كل بلبيس في أقل من شهر، ويقال أنه وجد ابنة المقوقس في بلبيس فأرسلها إلى أبيها معززة مكرمة.
- بعد أن جاءت الإمدادات، اتجه عمرو بن العاص إلى قرية يقال لها أم دنين (الأزبكية) واستولى عليها، ثم واصل زحفه إلى حصن بابليون الذي مازال له آثار في حي مصر القديمة إلى يومنا هذا.
- ظل حصار الحصن أسابيع طويلة حتى سقط الحصن واستسلم للمسلمين، ثم واصل عمرو بن العاص الفتح حتى أتم فتح الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الحين، ثم الدلتا والصعيد.

ومن الجدير بالذكر أن الأقباط في مصر كانوا خير عون للمسلمين الفاتحين ضد المحتل البيزنطي الغاصب، وعلى أي حال أصبحت مصر ولاية إسلامية، وبمرور الزمن دخل المصريون في الإسلام، واندمجوا في الثقافة العربية.

obeikan.com

الفصل الثانى

بداية عصر الولاة فى مصر

باتمام الفتح الإسلامي لمصر عام 642م، أصبحت مصر جزءًا مهما من كيان الدولة الإسلامية، وأقبل الأقباط على اعتناق الإسلام، وتوالت الهجرات العربية إلى مصر، واتخذت مصر طابعًا مميزًا لها عن سائر الولايات الإسلامية، حيث اندمج الأقباط والمسلمين اندماجًا رائعًا جعل لمصر مكانة مميزة في قلوب المسلمين.

على أي حال فإن فتح مصر تم في عهد الخليفة الراشد الثاني (عمر بن الخطاب)، والذي بدأت الدولة الإسلامية تتخذ في عهده شكل الدولة بمفهومها من حيث المؤسسات المختلفة والمتخصصة التي تدير الدولة وترعى شئونها، كما قام الخليفة عمر بن الخطاب باستحداث العديد من الأنظمة الإدارية والتي كانت ضرورية مع

obeikan.com

اتساع الدولة الإسلامية، وذلك لإحكام السيطرة على الدولة شاسعة المساحة ومتعددة الأعراق.

من أهم التنظيمات الإدارية للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هو تقسيم الدولة الإسلامية إلى ولايات، وعلى كل ولاية وال يعين من قبل الخليفة يقوم على إدارة شئون الولاية من خلال تنفيذ أوامر وتوجيهات الخليفة، وكانت المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية كما كانت في عصر النبي ﷺوخليفته الصديق، واستمر نظام الولاية معمولا به فيما تلى الخليفة عمر بن الخطابرضي الله عنه من خلفاء وعصور إسلامية مختلفة، مع بعض الاختلافات والتي ستتضح معنا في الفصول القادمة.

وقد حكم مصر في عصر الولاة الذي يمتد من الفتح العربي الإسلامي إلى قيام الدولة الطولونية في مصر حوالي 65 أو 66 واليًا، أولهم فاتح مصر عمرو بن العاص، وأربعةعشر من بني هاشم، وعشرة من قريش، وأربعون من الموالي.[1]

وكان للوالي في مصر إختصاصات الخليفة من حماية الولاية والناس، ومباشرة شئونهم الدينية وجمع الضرائب والانفاق منها

1– أ.د. عصام الدين عبد الرءوف – المرجع السابق – ص51

على الولاية، وإرسال الفائض إلى بيت مال المسلمين في المدينة المنورة.

• أشهر ولاة مصر

عمرو بن العاص:

بعد إتمام فتح مصر، قام الخليفة عمر بن الخطاب بتعيين القائد عمرو بن العاص واليًا على مصر، وتعتبر هذه الولاية هي ولايته الأولى على مصر، والتي انتهت فترتها بإستشهاد الخليفة عمر بن الخطاب عام 23هجرية.

قام عمرو بن العاص بالعديد من الأعمال المهمة خلال فترة ولايته الأولى على مصر، كان أهمها حرصه على نشر الإسلام بين المصريين بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يجبر أحد على الدخول في الإسلام.

كان عمرو بن العاص له علاقة قوية بالمصريين، حيث كثيرًا ما قد أتى إليها متاجرًا قبل الإسلام.

بنى جامعه والذي يعرف باسمه حتى يومنا هذا في حي مصر القديمة، وهو يعتبر أول جامع كبير في مصر، بل وفي قارة أفريقيا كلها.

اهتم بالزراعة باعتبارها أهم مورد إقتصادي في مصر، وأقام مقياسًا على النيل لتقدير منسوب المياه.

obeikan.com

أما عن عاصمة الولاية، فقد أراد عمرو بن العاص اتخاذ مدينة الإسكندرية عاصمة لولاية مصر، وأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، إلَّا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رفض حتى لا يكون بينه وبين المسلمين في مصر ماء، كما أن موقع الإسكندرية على البحر المتوسط يجعلها مطمعًا لهجمات الدولة البيزنطية المتكررة.

قرر عمرو بن العاص إقامة عاصمة جديدة لمصر، ووقع اختياره على منطقة قريبة من حي مصر القديمة، وأطلق عليه الفسطاط أي الخيمة أو المعسكر نسبة إلى فسطاط عمرو بن العاص بها.

قام عمرو بن العاص كذلك بإعادة حفر القناة القديمة للمصريين القدماء زمن سنوسرت الثالث والتي كانت تسمى سيزوستريس، وأطلق عليها خليج أمير المؤمنين نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وهي قناة تربط البحر الأحمر بنهر النيل ومن ثم البحر المتوسط، وكان لها فوائد تجارية عظيمة، إلَّا أن الغرض الرئيس من حفرها كان تسهيل الاتصال بين عاصمة الخلافة في المدينة من جهة وبين الفسطاط في مصر من جهة أخرى.

لم تكن الفسطاط المدينة الوحيدة التي شيدها عمرو بن العاص

في مصر، حيث قام ببناء مدينة الجيزة والتي تعني الناحية أو الجانب، وجمعها جيز، والجيز جانب الوادي، والجيزة اسم لقرية بجانب النيل من ناحية الغرب تجاه الفسطاط، اتسعت حاليا لتكون واحدة من أكبر محافظات مصر.

عبد الله بن أبي السرح:

عهد عمر بن الخطاب في أواخر أيامه بولاية صعيد مصر إلى عبد الله بن أبي السرح، وبذلك تضاءل نفوذ عمرو بن العاص في مصر، فلم يعد يحكمها كلها، إنما حكم قسمًا منها، فلما توفي عمر بن الخطاب سنة 23هجرية، وخلفه عثمان بن عفان، ضم الأخير ولاية مصر كلها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعزل عمرو بن العاص، وبهذا انتهت فترة ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر والتي استمرت أربع سنين وعدة أشهر.

ويعتبر عبد الله بن أبي السرح من أشهر الأبطال العرب والمسلمين الذين حققوا انتصارات جليلة على الروم، وأصبحت مصر في عهده مركزًا لانطلاق الفتوحات غربًا وجنوبًا، وحقق المسلمون في عهده أول وأهم الانتصارات البحرية في تاريخ الدولة الإسلامية، وكان ذلك في معركة ذات الصواري في البحر المتوسط عام 34هجرية.

معركة ذات الصواري 34 هجرية:

هي أول معركة بحرية للأسطول الإسلامي، وكانت ضد أسطول الروم البيزنطيين، ويبدو أن القتال في بدايته كان تراشقًا بالنبال والنشاب، فلما نفدت السهام اقتتل الفريقان بالحجارة، واتخذ المسلمون خطة حربية قوية، فربطوا سفنهم بالسلاسل مما جعل اختراق سفن الروم لصفوفهم أمرًا صعبًا.

في نفس الوقت استخدم العرب خطاطيف طويلة كانوا يقذفونها على سفن العدو، فيصيبون بها صواريهم ثم يجرونها إلى جوار سفنهم، فأصبحت المعركة وكأنها معركة برية، وكان النصر حليف الأسطول الإسلامي.

من المعارك المشهورة التي انتصر فيها عبد الله بن سعد أيضًا معركة سبيطلة، كما اتجه بالفتوحات جنوبًا حتى وصل دنقلة وأخضع النوبة إلى نفوذ الدولة الإسلامية.

أما عن سياسة عبد الله بن أبي السرح الداخلية في مصر، فيبدو أنها لم تسد الفراغ الذي تركه عزل عمرو بن العاص، واشتد بن أبي السرح في جمع الضرائب، مما كان له أثر كبير في انضمام أهل مصر إلى حركة المعارضة التي كانت ضد أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وهي ما عرفت باسم الفتنة الكبرى.

الفصل الثالث

مصر فى عصر الفتنة الكبرى

تعتبر الفتنة الكبرى التي وقعت بين المسلمين في عصر الخليفة عثمان بن عفان، نقطة فارقة في تاريخ الأمة الإسلامية ومازال مجال البحث فيها مفتوحًا لم يغلق ولن يغلق إلى قيام الساعة.

نالت تلك الفتنة من مصر كما نالت من كل ولايات الدولة الإسلامية، وكانت سببًا في انقسام الأمة الإسلامية وتمزيقها.

باختصار شديد فإن أعداء الإسلام أدركوا استحالة الكيد له من خارجه، فعزموا على الكيد له من داخله وتمزيق أمته الواحدة، فقد خرج رجلًا يهوديًا من صنعاء باليمن هو عبد الله بن سبأ، وأعلن إسلامه فجأة، وأظهر غيرةً شديدةً على الإسلام والمسلمين، والإسلام منه برئ واستطاع أن يقلب الناس على الخليفة عثمان بن عفان.

وقبل أن نرى كيف نالت هذه الفتنة من مصر باعتبارها واحدةً من أهم الولايات الإسلامية، فعلينا أن نذكر بقوله تعالى:

"وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (التوبة) (١٠٠)

فلا أحد أطيب من الصحابة، ولا أخلص لدين اللّه ورسوله مثلهم، فرضي اللّه عنهم وعمن سار على نهجهم إلى يوم الدين، وقد ذكر الحافظ بن كثير في تفسيره:

"يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.....»

الى أن قال:

" فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولاسيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم – أعني: الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة "[1]

1– تفسير ابن كثير (2/370)

وقال القرطبي في تفسيره لقول الله تعالى:

" وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " (الحجرات)(9)

" لايجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع له، اذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألَّا نذكرهم إلَّا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم "

على أي حال فإن رأس الأفعى وأساس الفتنة عبدالله بن سبأ، لما لم يجد استجابة لدعوته المنادية بعزل عثمان من الخلافة في الجزيرة العربية، قرر أن ينتقل إلى مصر، ووجد فيها أرضا خصبة لنشر دعوته واتخذها قاعدة لنشر دعوته في البلاد الإسلامية، وانتعشت دعوة ابن سبأ في مصر، وانضم إليها الكثير من المصريين، وتوالت الأحداث حتى اجتمع عدد كبير من أتباعه في المدينة حول بيت الخليفة عثمان بن عفان قادمين من مصر والبصرة والكوفة حتى استشهد عثمان.

آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، إلَّا أن معاوية بن أبي سفيان والي الشام رفض أن يبايع عليا بالخلافة، وكانت ذريعته المطالبة بدم عثمان بن عفان، وقد تبعه في ذلك عمرو بن العاص والذي يبدو أنه رغب في العودة إلى ولاية مصر.

قام الإمام علي بن أبي طالب بتنصيب محمد بن أبي حذيفة واليا على مصر وطرد منها عبد الله بن سعد بن أبي السرح فلما علم معاوية بن أبي سفيان بانضمام مصر إلى الخلافة الشرعية وأضحت لأمر أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، تطلع معاوية إلى ضمها لملكه فسار مع عمرو بن العاص إلى مصر وأخرج منها محمد بن أبي حذيفة.

عهد بعد ذلك الإمام علي بن أبي طالب إلى قيس بن سعد بن عبادة بحكم مصر والذي حكم بالعدل وسار في الناس سيرة حسنة،إلَّا أن الإمام علي قام بعزله لما علم عنه من مهادنة معاوية، ثم ولى مصر محمد بن أبي بكر الصديق، إلَّا أن الناس استخفوا به، فعهد الإمام علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي بولاية مصر والذي لم يصل إليها ومات مسموما على أبوابها بفعل سم دس له في الطعام، فاضطر الإمام علي إلى ابقاء محمد بن أبي بكر في ولاية مصر.

استطاع فريق معاوية بن أبي سفيان هزيمة محمد بن أبي بكر وانتزاع ولاية مصر من دولة الخلافة التي يحكمها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والذي استشهد سنة 40 من الهجرة على يد أحد الخوارج هو عبد الرحمن بن ملجم.

باستشهاد الإمـام علي بن أبـي طالب انتهى عصر الخلافة الراشدة، وبدأت الدولة الإسلامية عصرا جديدًا عرف باسم الدولة الأموية نسبة إلى نسب مؤسسها معاوية بن أبي سفيان وحكامها من بعده، ومع بداية عصر الدولة الأموية، عاد عمرو بن العاص واليا على مصر، وتعتبر هذه هي ولايته الثانية على مصر، ليبدأ عصر مصر في ظل حكم بني أمية.

obeikan.com